المبحث الثالث

الاستجابات الموسيقية

٢* الاستجابات الموسيقية :

لا شك أن جميع الكائنات الحية تستجيب للموسيقي ... وإن تفاوتت درجات هذه الاستجابة . وقد عبر عن ذلك العالم العربي الكبير، الفارابي، حيث قال "إن فى طباع الحيوانات والإنسان إذا طربت صوتت نحواً من التصويت، كذلك إذا لحقها خوف صوتت صنفاً آخر من التصويت".

ثم قامت الدراسات الحديثة لتؤكد نفس الحقيقة .. ففي دراسات "ماكس وجاكسون" أمكن قياس التيارات الحركية داخل الجسم اثناء الانفعالات بالموسيقي. تلك التغييرات تخفيها الملابس، بينما تظهر أحياناً تلك الانفعالات بطريقة واضحة فى صورة الخبط بالرجل أو اليد أو غير ذلك

فالاستماع الموسيقي يحدث انفعالات نتيجة استجابات مختلفة مبنية على أساس إرسال الاشارات العصبية للمخ، فتنعكس على أثرها الاستجابة بطريقة معينة. وبعد تجارب عديدة ثبت أن الانفعالات المختلفة هي ردود فعل معقدة للجسم ككل ، وبصفة خاصة للنظام العصبي المركزي.

وفى هذا المجال يقول هنزليك: " تتبع الموسيقي من احاسيس سامية. احاسيس لا تنتمي إلى حياتنا اليومية وما تتخللها من احداث .. أنها تخلق فى وجداننا حالة فريدة من الشعور أو المزاج تجعل وعيناً الإنساني يبتعد عن كل ما يحدق بعالمنا من مشاكل ومتاعب يومية أو اجتماعية".

كما قامت الدراسات والأبحاث المتعلقة بالاستجابات، فأثبتت الموسيقار البريطاني وعازف الأرغن "شار إفيسون" أن الموسيقي تثير أنواعاً مختلفة من الاستجابات وفقاً للأصوات التي تعبر عنها القطعة الموسيقية.

وتتابعت الدراسات والبحوث لتحديد انواع الاستجابات الموسيقية.

أولا : الاستجابة الفسيولوجية للموسيقي :

وتظهر فى صورة رد فعل حركي خارجي ، مثل الخبط بالرجل أو تحريك الرأس أو غيره، اثناء متابعة ايقاع القطعة الموسيقية ، أو فى صورة ردف فعل رد فعل داخلي، ويمكن ملاحظة عن طريق قياس النبض أو ضغط الدم أو غيرهما.

ففى تجارب " جامبل وفوستر " تمكنت الموسيقي المختلفة من تغيير سرعة التنفس وعمقه. كما أن تجارب " ويلد" بينت أن الموسيقي ادت إلى زيادة نشاط القلب، ولوحظ تغيير فى توزيع كمية الدم بالجسم . كذلك حدث عدم انتظام واضح فى سرعة وعمق التنفس . وذلك حسب تغيير المؤثر والمتأثر.

وأما التجارب الروسية لـ " ميخائيل موجندوفيك " و "فيرا بولياكوفا" فقد أثبتت نقص زمن رد الفعل الحركي بمقدار 100/20 من الثانية ، والوظائف الجسمانية والذاكرة تحسنت بنسبة 100% بفعل الموسيقي.

وتنقسيم الاستجابة الفسيولوجية إلى ثلاثة أقسام :

(أ) استجابة لا إرادية: مثل تغييرات ضربات القلب أو النبض ، وهذه يصعب التحكم فيها.

(ب) استجابة شبه ارادية : مثل الخبط بالأرجل بطريقة لا إرادية أثناء سماع الموسيقي .. على انه عند التيقظ يمكن التحكم فى هذه الحركة.

(ج) استجابة إرادية : يمكن التحكم فيها : مثل الحركات الإيقاعية المقصودة بمصاحبة الموسيقي . وتستند هذه الاستجابة إلى حركة العضلات، وتعرف بالنظرية الحركية. والنظرية الحركية تعتمد على وجود جهازنا العضلي المعقد الذي يمكننا من استقبال الإيقاعات المعقدة، والاستجابة لها بواسطة التدريب.

وتؤكد المدرسة التوقيعية (Eurhythmic School) للمبتكر "إيميل جاك دالكرو" أن الاستجابة الايقاعية (وهي جزء من الاستجابة الفسيولوجية) تفيد فى مجالين : الأول جسمي محض ، لتمرين العضلات وتحسين الصحة ، والثاني معبر عن القيمة الجمالية للنفس.

ثانيـ : الاستجابة الانفعالية للموسيقي :

وإذا كانت نتائج الاستجابة الفسيولوجية قد برزت نتائجها من خلال التجارب الحديثة ، فإن الاستجابة الانفعالية تعتبر من الاكتشافات القديمة.

ولفلاسفة اليونان الفضل الأول فى إثبات أن الموسيقي وسيلة فعالة فى تربية النفس وتهذيب الطباع .. ويعتبر أفلاطون وسيلة فعالة فى تربية النفس وتهذيب الطباع .. ويعتبر أفلاطون من الرواد الأوائل الذين اكتشفوا الأثر الانفعالي للموسيقي ، حيث عبر بقوله : " الايقاع والنغم ينفذان إلى أعماق النفس ويستحوذان عليها بقوة".

وانتقل شعاع التطوير من اليونانيين إلى من جاء بعدهم..

ففي القرون الوسطي – التي توصف بالقرون المظلمة – كتب "بوثيوس" كتاب " مؤسسة الموسيقي" .. ومع ذلك فإنه يسجل حقيقة لا نبالغ اذا وصفناها بالإبداع .. فيقول المؤلف فى أول سطور هذا الكتاب: " إن الموسيقي جزء من طبيعتنا الانسانية ، ولها القدرة على تحسين خلقنا أو الحط منه".

ثم جاء " ماير" ليقول : " الموسيقي يمنها أن تؤدي معاني انفعالية وتذوقية ، مضافاً اليها معان ذهنية تجريدية خالصة، وبذا يمكنها التأثير فى أمزجة الأفراد وانفعالاتهم النفسية الأخري".

ثالثـ : الاستجابة المزاجية أو العاطفية للموسيقي :

من الطبيعي أن تؤدي الخبرات الانفعالية المتتالية المستمدة من الموسيقي إلى تكوين ما يمكن وصفه بالمزاج الثابت، بدلا من الاحاسيس والمشاعر المؤقتة . فالانفعال مؤقت، يظهر ويختفي وفقاً للأسباب التي تحركه، أما المزاج فيظل ثابتاً نسبياً .. هذا ما أشار اليه "ويلد" من استنتاجات تجارية.

وقد عبر "هفنر" عن هذه الاستجابة بقوله:

"إنها حالة يقظة ، تكون فيها العضلات وجميع الحواس فى حالة تأهب وحركة .. تعيش مع كل جزء من المؤثر .. حيث يستجيب ويتفاعل النشاط الجسماني والإدراك الحسي معه.

فتجتمع المعاني الواقعية والخبرة الجمالية لتدمج فى جميع الانشطة النفسية والجسمانية لحياة الإنسان اليومية.

رابع : الاستجابة الخيالية للموسيقي :

وتظهر هذه الاستجابة عندما تثير الموسيقي خيال المستمع ، خصوصاً إذا كان يصاحبها غناء صوتي يفسر معانيها.

خامس : الاستجابة العقلية المعرفية للموسيقا :

وهنا تلعب الثقافة بشكل عام، والثقافة الموسيقية بشكل خاص ، دوراً باراً فى تحريك هذا النوع من الاستجابة .

فالعقل – وليس الأحاسيس وحدها – يبرز كعنصر رئيسي مستغلاُ ثقافته لتعميق هذه الاستجابة.

سادس : الاستجابة الجمالية موسيقي :

"والجمال" كما يقول هيجل – " هو ما يمكنه التعبير عن الحقيقة الروحية فى صورة محسوسة".

كما يضيف " ريتشارد فاجنر " إلى هذا المفهوم : " إذا اردنا أن نتخيل الجمال فى اكمل صورة فيكفينا أن نستمع إلى الموسيقي الجميلة".

من الواضح أن هذه الاستجابة مرتبطة بتفاعل الخيال مع الثقافة. وكلما زاد هذا التفاعل، اشتد بروز هذه الاستجابة ووضوحها لدي المستمع.